مـــــــــــــا لـــم أقـــلـــه لإدوارد

□ سامية محرز

إلى عريه سعيد

Edward W. Said

كنتُ أستعدّ لمناقشة أطروحة الماجستير بالجامعة الأميركية في أول صيف عام ١٩٧٩، وموضوعُها «البطل الضدّ عند الكاتب الفلسطينيّ إميل حبيبي والكاتب الإيرلنديّ جيمز جويس.» كانت تلك أولَ رسالةِ أدبٍ مقارن تُطْرح على قسم الأدب الإنجليزيّ. أستاذتي د. فريال غزّول، المُشْرِفة على الرسالة، راهنتْ على هذه الأطروحة لتعديل مسار قسم الأدب الإنجليزيّ التقليديّ وتحويلِه إلى قسمٍ للأدب المقارن. شكّلتْ لجنة متضامنة مع رؤيتها: الدكتورة سيزا قاسم دراز، والدكتورة باربارا هارلو. وكان علينا جميعًا، وأنا في المقدّمة، إقناعُ رئيسة قسم الأدب الإنجليزيّ حينذاك، الدكتورة دوريس شكري، بجدوى تعديل مسار القسم. امتحانٌ صعبٌ إذنْ، ومسؤوليةٌ تَفُوق ما كنتُ أتصوّره عن مناقشة الماجستير. قبل موعد الامتحان بحوالى ثلاثة أيام، خابرتني الدكتورة فريال معلنةً أنّ إحدى عضوات اللجنة مصمِّمةٌ على إضافةِ «حتمية» إلى قائمة النصوص التي طُلِب منّي الإلمامُ بها قبل المناقشة. كتابٌ بالإنجليزية لم أَسْمع عنه قط: **الاستشراق**، لكاتبٍ لم أَسْتطع التعرُّفَ على هويته مِنْ اسمه: Edward W. Said. أهو مِنْ «عندنا» أَمْ مِنْ «عندهم»؟ وكان كتاب **الاستشراق** قد صَدَرَ عام ١٩٧٨، ولكنّني في شرنقتي القاهرية لم أَكُنْ قد سمعتُ به من قبل، ولا بالضجّة التي صاحبتْ صدورَه في الغرب.

أَكْذب لو قلتُ إنّني استمتعتُ أو تأثّرتُ بقراءتي الأولى لكتاب **الاستشراق**: فتلك القراءة كانت مقرونةً بامتحان عسير: تأدية واجبٍ، لا أكثر ولا أقلّ. كنتُ ناقمةً على أساتذتي: فهو كتاب معقّد: كلُّ جملةٍ فيه تَحْمل أفكارًا جديدةً مركّبةً ومعلوماتٍ دقيقةً عن حقل، بل حقوقٍ معرفيةٍ بأكملها لا أعرف عنها إلاّ القليلَ القليل. مالي ومال **الاستشراق**، أنا طالبة الأدب الإنجليزيّ؟ أتخيّل الكاتب، Edward W. Said: رجلاً قصيرَ القامة، مملتئَ البدن، يرتدي نظارةً طبيةً سميكة، عابسَ الوجه، قليل الشعر. هكذا يكون Edward W. Said.

لم أَكُنْ أدري، يومَ لخّصتُ بإتقانِ الطالبة المُجدّة أمام أساتذتي الأطروحةَ الرئيسةَ في **الاستشراق**، أنّ هذا الكتاب سيُصْبح النصَّ المؤسِّسَ للكينونة الجديدة: فلا العينُ ترى بَعْدَه كما كانت ترى، ولا اللسانُ يَنْطق بما كان قد تعوّد، ولا اليدُ تَكْتب ما كانت قد أَلِفَتْ. صحيح أنّنا كنّا قد قرأنا ميشيل فُوكو، وبدأنا في التعرُّف على جاك ديريدا، ولكنّ إدوارد سعيد كان يحدّثنا عن أنفسنا وعن تاريخنا وعن رواياتنا. وأَصْبح **الاستشراق** فيصلاً في فهمنا لعلاقة الذات والآخر، السلطة والمعرفة، الرواية والتاريخ. ويتجاوز الكتابُ كونَه من أهمّ ما نُشر في القرن العشرين ليصبح فتحًا لحقلٍ معرفيّ جديد، هو «دراسات ما بعد الكولونيالية،» نتعرّف في فضاءاته على أمثالنا من «الأتباع» subalterns في العالم بأَسْره، أولِه وثالثِه، نتكلّم كلُّنا لغةً جديدةً، هي تلك اللغةُ التي صَعُب عليّ فهمُها، إذ لم يخاطِبني بها أحدٌ قبل يوم امتحان الماجستير.

الخروج من المكان

ترفّقَ الأساتذةُ بحالي يومَ امتحان الماجستير. فبدأتُ رحلة الخروج: الخروج من الأسرة، والخروج من الطبقة، والخروج من النمط التعليميّ، والخروج من المكان. وقد تزامنتْ رحلتي في الخروج مع رحلة قسم الأدب الإنجليزيّ بالجامعة الأميركية، فخرج هو الآخر من إنجليزيته وأصبح «قسم الأدب الإنجليزيّ **والمقارن**.» اكتشفتُ قبل سفري إلى الولايات المتحدة أنّ أستاذتي فريال كانت قد تتلمذتْ على يد إدوارد سعيد. وتبرّعتْ مشكورةً بكتابة رسالة إلى أستاذها تحدّثه فيها عن أطروحتي المتواضعة وتطلب منه قراءتها، وتَقْترح عليه نشرَها في **مجلة الدراسات العربية** Arab Studies Journal التي كان يرأس تحريرَها حينذاك.

لم يكن قد مضى على وصولي إلى جامعة كاليفورنيا ـ لوس آنجلس UCLA أكثر من شهر. إنّه عامُ الثورة الإسلامية في إيران. تُطلّ علينا من شاشات التلفزيون ملايينُ النساء الإيرانيات اللاتي نَزَلْنَ، بمحض إرادتهنّ، إلى شوارع إيران، يرْتدين «الشادور» ويؤيّدن آية اللّه خميني، ويطالبن بخروج الشاه وإعلان الجمهورية الإسلامية. أتعرّف على الحرم الجامعيّ المترامي الأطراف. يستوقفني إعلانٌ عن محاضرة لإدوارد سعيد، موضوعُها «تغطية الإسلام،» ولم يكن كتابُه عن تغطية الإسلام والدورِ الذي تلعبه وسائلُ الإعلام في «شيطنة» الآخر المسْلم قد نُشِرَ بعد.

جوزيف كونراد استهوى سعيدًا حين كتب رسالة الدكتوراه عن إشكالية الهوية والانتماء والسرد

أخيرًا سأراه! أصل إلى قاعة المحاضرة مبكّرًا خوفًا من أن أَضيع في دهاليز تلك المباني. أجد القاعة خاليةً. أَنْتظر. يبدأ الطلبة والأساتذة في التوافد على القاعة. أفواجٌ متلاحقةٌ من المؤيِّدين المنشرحين والمهاجمين المتحفِّزين. يجلسون على المقاعد. يقفون مستندين إلى الحائط. يفترشون أرضَ القاعة. يا له من حضور! لم يبق «خرمُ إبرةٍ» في القاعة. يهمسون وينتظرون مثلي.

يدخل إلى القاعة رجلٌ ممشوقُ القوام، فارعُ الطول، مشرقُ الوجه، ذو شعرٍ كثيفٍ أسودَ كالليل، ابتسامتُه مضيئة وعيناه ثاقبتان. يقف أمامنا. تقدِّمه الدكتورة عفاف لطفي السيِّد مارسو، صاحبةُ الدعوة. يبدأ المحاضرة... فأَنْجذب: النبرة، الإلقاء، اللغة، الحماس، الانفعال. يا إلهي... إنَّه يحارب! وأُحسّ فجأةً أنّ لي سندًا، وأنّ لي لسانًا، وأنّ لي مكانًا يجب عليّ أن أَسْتكشفه وأن أَسْكُنه.

أتقدّم نحوه في خجل من نفسي ومن الصورة الكريهة التي كنتُ قد نسجتُها له في خيالاتي المدرسية. أقدِّم نفسي: «سامية محرز...» فيقاطعني: «أنتِ تلميذة فريال. لقد كلمتني عنكِ.» أقف أمامه كالبلهاء، لا أصدِّق. هذا الفارس المحارب، الذي خرج لتوّه من مبارزةٍ مضنيةٍ ارتجّت لها القاعةُ ارتجاجًا، يَنْفرج وجهُه ويتذكّر أطروحة متواضعة ولكنْ ـ كما قال يومها برحابته المعهودة مع الصغار ـ «هامة جدًا» عن الأدب الفلسطينيّ. فأُدْرك فجأةً أهميةَ الفعل الصغير مهما كان صغيرًا، وأُدْرك أيضًا أهمية التدوين مهما كان متواضعًا.

في اليوم التالي، أَقْطع لوس آنجلس طولاً وعرضًا لأصل إلى مكتبة كلارك. اليوم سيُحاضر عن جوزيف كونراد. أُنْصت. هذا الكاتب استهواه حين كتب رسالة الدكتوراه عن إشكالية الهوية والانتماء والسرد. اليوم النبرة مختلفة إلى حدّ كبير. اللغة أكثرُ رصانةً. الإلقاء ساكن. والانفعال منضبط. تبدو صورته أكثر تركيبًا اليوم. فأسأل نفسي: كيف للمحارب أن يكون عاشقًا هكذا وبكلّ هذا الاتّساق؟

يقدِّمني لزوجته مريم: «سامية. تلميذة فريال.» أَرْمقها: كم هي جميلة. أحسدها وأحنو عليها في آن. أغادر القاعة مزهوّةً يغمرني شعور بالفخر بهذا النَّسَب الجديد: نسب سيَرْبطني به ربعَ قرن.

تَنْدلع أزمةُ الرهائن بين الولايات المتحدة وإيران. نصبح نحن «أولادَ الشرق» مستهدَفين في الشوارع، في الأماكن العامة، في المواصلات، في الجامعة، وبالطبع في الإعلام. أَسْكن في غرفة في بيت سيّدة أميركية طيّبةِ القلب، تخاف عليَّ من عنف الشارع ضدّ الإسلام وضدّ المسلمين. تعطيني شارةً للعلم الأميركيّ لكي أتحصّن بها في رحلتي اليومية الطويلة إلى الجامعة وتقول: «ملامحك شرقية. هذا العَلَم يُبْعد عنكِ التهمة.» أجيبها بثقة وليدة لم أَعْهدها في نفسي من قبل: «لا تخافي. أعرف الدفاعَ عن نفسي.»

كان إدوارد دائم السخط على وسائل الإعلام. وفي أكثر من مرة عَبَّرَ عن أنَّه «زهق» من الدقائق الثلاث المتاحة له للدفاع عن نفسه وعن الإسلام وعن المسلمين وعن فلسطين وعن الفلسطينيين... لم يكن يَعْلم أنّ هذه الدقائق الثلاث التي عذّبتْه وأَنْهكتْه على مرّ السنين كانت باستمرارٍ السلاحَ اليوميّ الذي نَخْرج به إلى الشارع ونحن هناك. نَنْتظره على الشاشة واثقين. ننصت، ونصطفّ وراءه، ونخرج مسلّحين.

سَجِّلْ أنا عربيّ

نجلس إلى مائدة عشاء على شرف إدوارد في مطعم بمدينة إيثاكا في ولاية نيويورك. نحن في عام ١٩٨٦. جاء هذه المرة بدعوة من جامعة كورنيل حيث كنتُ أَعْمل لمدة ست سنوات في قسم دراسات الشرق الأدنى. جامعة كورنيل معروفة، بحكم موقعها من مدينة نيويورك، بأنَّها تَسْتقطب أبناءَ اليهود الأثرياء (المنحازين، في غالبيتهم على أقلّ تقدير، لإسرائيل). وللإنصاف أقول إنَّني عاصرتُ داخل هذا المعقل الصهيونيّ تيارًا ليبراليًا متعاطفًا إلى حدّ بعيد مع القضية الفلسطينية... بشكل عام!

أثناء العشاء، يخاطبني إدوارد بالعربية... مجرّد «دردشة.» ولكنّ الدردشة تطول. أتحرّج من أنّ الموجودين معنا لا يَفْهمون. يستمرّ هو في الحديث. يصمتون. يُنْصتون بانتباه منبهرين. أخيرًا أَفْهم! يتحتّم عليه هنا أن يُثْبت أنَّه عربيّ. عليه أن يُبرهن أنَّه من «هناك» إنَّهم يشكّكون في انتمائه، يَنْزعون عنه فلسطينيتَه ويسائلونه عن هويته. ها هو قد أَخْرسهم. يَصْمتون ويُنْصتون.

أقتنص الفرصة التي جمعتْنا معًا في هذه اللغة السرية وأقول: «لا يكفي أن تحاضرَ هنا وتكتبَ بالإنجليزية. نحن نريدك **هناك**.» يقول: «هذا فوق طاقتي.» فأصرّ، ككلّ الذين أصرّوا من قبلي. نطالبه ونطالبه وننهكه بالمطالب... فيلبّي.

في عام ١٩٨٩ جاء إدوارد إلى الجامعة الأميركية بالقاهرة ليحاضر في قاعة إيوارت بالعربية لأول مرة. جمهور غفير يتعرّف على أفكاره في جلسة حميمة لأول مرة. يَرْسم ببساطة شديدة مسيرتَه الشديدةَ التعقيد أمام جموعٍ طال انتظارُها لهذا الفارس الحاضر/الغائب.

يهلّ علينا بعد ذلك في ترجمات عربية لأعماله، وفي مقالات دورية في الصحف العربية، فينشأ أكثرُ من جيل في العالم العربيّ لا يقرأ إلاّ العربية، متشكّلاً بأفكاره، متشبّعًا بمواقفه، ومتحاورًا معه وهو خارج المكان. ويأتي إلى القاهرة بعد ذلك بشكل شبه دوريّ.

وأخيرًا يَضْبطون إدوارد سعيد متلبّسًا بفلسطينيته! سجّلوها في صورة من أكثر الصور توثيقًا لـ «هويته.» كانوا يشكّكون في انتمائه فإذا بهم ـ ويا لها من مفارقة ـ يثبّتون عليه التهمة. إنّه فلسطينيّ: إدوارد سعيد، يميل بجسده الطويل إلى الخلف، لابسًا الكاب الأميركيّ الشعبيّ، رافعًا ذراعه إلى أقصى الوراء، في يده حجرٌ صغيرٌ يرشق به المحتلّ الإسرائيليّ من على الحدود اللبنانية عام ٢٠٠٠.

شقة ١٠٠٣، مساكن الجامعة الأميركية بالقاهرة

هذا هو عنوان الشقة التي شهدتْ كتابةَ المسوّدة الأولى (غالبًا) لجزء لا أَعْرف قدْرَه بالضبط من **خارج المكان**، السيرةِ الذاتيةِ لإدوارد سعيد. كان جاري: فأنا أسكن شقة ١٠٠٤ في المبنى نفسه. جاء إدوارد إلى القاهرة ليمضي شهرًا بأكمله يَسْترجع خلاله بعضَ معالم الطفولة ومقتبلِ الشباب.

لا أَذْكر بالضبط متى ولا كيف اكتشفتُ أنّ إدوارد كان جاري أيضًا في الطفولة! فأهله كانوا يَسْكنون بيتًا في الشارع الموازي لشارع بيت أهلي.

وكنّا، إدوارد وأنا، من المدرسة نفسها: مدرسة الجزيرة التحضيرية بالزمالك. دَخَلها هو قبل الثورة، ودخلتُها أنا بعد قيامها بحوالى عشر سنوات. كانت وجوهُ التلاميذ في زمني أكثر سمرةً، وكذلك وجوهُ الأساتذة. ولكنّنا، مثل إدوارد في صباه، كنّا نغنّي كلّ صباح All Things Bright and Beautiful. اليوم، أُطلّ على مدرستنا من شرفة بيت أهلي. أرى التلاميذ يقفون صفوفًا في طابور الصباح، يَزْعق فيهم ـ بمكبّرِ صوتٍ مزعجٍ ـ ضابطُ شرطةٍ بالزيّ الرسميّ.

الكلّ يَعْلم أنّ إدوارد مريض. أخاف عليه من ثِقل الجيرة: فهو في حاجة إلى الراحة. أتلصّص عليه من نافذة شقتي. النور لا ينطفئ. أَكْبح الرغبةَ في السؤال عنه والاطمئنان إلى صحته خوفًا من إزعاجه. فيدقّ جرس التليفون مرّة ثم مرات: «سامية، أريد أن ألعب تنس»؛ «سامية، خذيني في طريقك إلى الجامعة»؛ «سامية، أين أستطيع كيَّ قمصاني...» إنّه فعلاً جاري، هكذا وبمنتهى البساطة.

أقابله في المصعد. أَدْعوه إلى الغذاء ـ فزوجي وأنا في انتظار الدكتور أندريه ريمون، المؤرِّخ الكبير للمدن الإسلامية في العصر العثمانيّ. يَقْبل إدوارد الدعوةَ في الحال وبدون «تكليف،» فأَنْدم أنا في الحال على ما فعلتُ. أؤنّب نفسي: كيف لكِ أن تجمعي بين ريمون وإدوارد في بيتك؟ علاقةُ إدوارد بحقل الدراسات الشرقية في فرنسا بالذات علاقةٌ إشكاليةٌ. فأعماله التي أحدثتْ ثورةً معرفيةً في العالم الأنجلو ـ ساكسونيّ قد عُتِّم عليها من قِبل المتخصِّصين في الحقل في فرنسا، وظلّ إدوارد وأطروحاتُه الثورية مهمَّشًا بشكل ملحوظ من قبل الأكاديمية الفرنسية. وكان ذلك وضعًا آله كثيرًا واشتكى منه في أكثر من مناسبة، حتى جاء الراحل بيير بُورديو، عالمُ الاجتماع الفرنسيّ المعروف، ليَكْسر حاجز الصمت الذي أحاط بإدوارد ويوجِّهَ إليه دعوةً لإلقاء محاضرات في الكوليج دو فرانس عام ١٩٩٨. جاءت الدعوةُ إذن من **خارج** حقل الدراسات الشرقية، وظلّت علاقةُ إدوارد بالحقل نفسه علاقةً تتّسم بالتحفُّظ بشكل عامّ.

يدقّ جرسُ الباب. فأتمتم لنفسي: «ربّنا يستر!» نجلس حول المائدة. الحديث بينهما صعب، متعثِّر في بادئ الأمر. ولكنْ سريعًا ما يذوب الثلجُ ويأخذ إدوارد المبادرة، فيُبْدي إعجابَه الشديد بأعمال أندريه ريمون ورؤيته التاريخية الحداثية التي تَعْتمد في التأريخ للمدن الإسلامية على

إنّه فلسطيني: يميل بجسده الطويل إلى الخلف، في يده حجر يرشق به المحتلّ الإسرائيلي

إنجازات مدرسة الحوليات التاريخية annales. نتنفّس الصُّعداء، أنا وزوجي ريشار، وتَنْفرج الأسارير، ويبدأ حوار جميل بينهما، ويطول الحديث، ونَشْرب القهوة، ويَنْسحب الاختلاف.

المُواطن والمثقف

قاعة المؤتمرات بمدينة نصر بالقاهرة. حفلُ تخرُّج طلبة الجامعة الأميركية، يونيو ١٩٩٩. يَجْلس أعضاءُ هيئة التدريس بالجامعة في صفوف متراصّة على منصة مرتفعة في مواجهة قاعةٍ واسعةٍ اكتظّتْ بالطلاب وأولياء أمورهم وعديدٍ من الشخصيات العامة من الوزراء والسفراء العرب وغير العرب. يَنْهض إدوارد سعيد لاستلام شهادة الدكتوراه الفخرية التي منحتْه إيّاها الجامعةُ الأميركيةُ بالقاهرة هذا العام. يقف أمامنا، نحن أعضاءَ هيئة التدريس الجالسين وراءه، فنبدو لوهلة، لعين الجالس في القاعة، كأعضاءِ فريقِ أوركسترا يقودنا هذا العازفُ المحترف.

يطول التصفيقُ، وتطول تحيةُ الاحترام والإجلال. ثم يسود صمتٌ رهيبٌ غيرُ مسبوق! كلّ عام نَخْرج من هذا الحفل الصاخب مستائين من كمّ الضجيج الذي يصاحب مراسم الحل: الصفافير، والزمامير، والرقص، والطبول... أما الليلة فالكلُّ يُنْصت بانتباه. ويبدأ العزفُ المنفرد.

الليلة ليلةُ عيد بالنسبة إليّ بشكل شخصيّ. فقد عشتُ أكثر من ستة أشهر في خضمّ أزمة طويلة بسبب تدريسي في فصل الأدب العربيّ الحديث نصَّ **الخبز الحافي**، وهو السيرة الذاتية الروائية للكاتب المغربيّ الكبير محمد شكري (الذي يخوض، هو الآخر، حربًا ضاريةً ضدّ مرض السرطان وأنا أَكْتب هذه السطور). بدأت الأزمةُ في ديسمبر ١٩٩٨ داخل الجامعة، وتفاقمتْ بسرعة، فخرجتْ إلى الصحف، ثم إلى مجلس الشعب المصريّ حيث طُولب وزيرُ التعليم العالي بمعاقبتي وإقصائي عن التدريس.[١]

تحولتْ إذنْ أزمةُ كتاب **الخبز الحافي** إلى قضية رأي عامّ. وتبرّعت الزميلة العزيزة والصديقة الحميمة، الراحلة ماجدة النويهي، أستاذةُ الأدب العربيّ بجامعة كولومبيا حيث يَعْمل إدوارد سعيد نفسُه، بأن ترسل إليه ملفّ القضية كاملاً للاطّلاع عليه.

جاءنا الردُّ صاعقًا على صفحات جريدة **الأهرام ويكلي** الأسبوعية في مقال بالإنجليزية عنوانه «الأدب والحَرْفية» Literature and Literalism في أول فبراير ١٩٩٩ يُدافع فيه إدوارد عن الحقل الأدبيّ واستقلاليته، وعن حرية التعبير والحرية الأكاديمية. فيأخذ بأزري في محنتي ويثبّتني في موقعي، فأَثْبت بثقةٍ وبإصرار.

الليلة، إذن، ليلةُ عيد. ها هو سَنَدي ونسبي يقف بيننا ومعنا، يخاطب القاعةَ ويذكّرنا، نحن الجالسين وراءه، بماهية «الجامعة» وحتميةِ الحفاظ على المسافة بينها وبين القيم التي تهيمن على المجتمع، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو دينية أو أخلاقية. يلحّ على العلاقة بين التعليم والمواطَنة، وعلى العلاقة بين المواطَنة ومستقبل الوطن، ويحثّنا على الخروج والترحال. فتحضرني فجأةً صورةُ الضابط، بزيّه الرسميّ، يَزْعق في مكبِّر الصوت المزعج أمام «طابور» الطلاب في مدرستنا، أنا وإدوارد، مدرسةِ الجزيرة التحضيرية.

بعد أيام، يجد إدوارد الوقتَ للاحتفال معي ومجموعة صغيرة من الأصدقاء المتضامنين بانتهاء أزمة **الخبز الحافي**. يلومنا، أنا وفريال، مشيرًا إلى ردّي على إدارة الجامعة أثناء الأزمة، وإلى مقالٍ بديعٍ لفريال كان أولَ ما نُشر في **الأهرام ويكلي** دفاعًا عن **الخبز الحافي**. يقول: «لقد أخطأتما. إنّ دفاعكما عن الكتاب كان دفاعًا أخلاقيًا، لأنّكما تبحثان عن إيجابية النصّ. كان عليكما أن تدافعا عن الأدب باعتباره أدبًا، بغضّ النظر عن إيجابيته أو سلبيته الأخلاقية.» فتتجسّد أمامي صورةُ المثقف المنخلع عن كلّ أنماط السلطة، وهي الصورة التي رسَمَها بإتقان في كتابه **صور المثقف**.

منذ ذلك اليوم وأنا أبدأ تدريسي لمادة الأدب العربيّ الحديث، في كلّ فصل دراسيّ، بقراءة نصّين أساسيّين قبل الدخول إلى قراءة النصوص الأدبية المقرّرة: نص مقال «الأدب

١ ـ كنتُ قد دُعيتُ إلى كتابة شهادة / مقال عن تفاصيل هذه الأزمة على صفحات مجلة الآداب في عددها عن «الرقابة في مصر» ١١/١٢، ٢٠٠٢. وكان العدد قد صودرَ في القاهرة ثم أُفْرج عنه، بعد تحرُّكٍ مكثّفٍ للمثقفين العرب والمصريين

والحَرْفية،» ونصّ كلمة إدوارد في حفل التخرُّج عام ٩٩. أحرِّض بهما طلابي على الحرية ومسؤولية المواطنة والترحال. وأذكِّر نفسي...

نديم وسعيد

ابني نديم عمرُه عشرُ سنوات. طفل وحيد. كثيرًا ما يجد نفسَه محاصرًا بالكبار وحديثِ الكبار وهموم الكبار. يستمع بانتباه إلى نقاشات طويلة عن الثقافة وعن السياسة وعن المجتمع. يتابع معنا نشرات الأخبار، ويسأل أسئلة كثيرة عن فلسطين وعن إسرائيل وعن أميركا وعن العراق وعن كلّ الأطفال الذين يموتون أمام عينيه كلّ يوم. فقد تشكّل وعيُ هذا الطفل مع بداية انتفاضة الأقصى و١١ سبتمبر والحرب ضدّ أفغانستان وإعادة احتلال المدن الفلسطينية والحرب على العراق.

يشارك معي في المظاهرات في الجامعة، ويَحْمل علم فلسطين. تزعّم نديم مع فصله في العام الماضي حملةَ تبرُّعات باهرة في مدرسته الفرنسية. جمعوا حوالى ٣٠٠٠ جنيه أصبحتْ جزءًا صغيرًا من ميزانية سفر مجموعةٍ من طلاب الجامعة الأميركية في سياق مشروع تطوعيّ تضامنيّ اسمُه «من القاهرة إلى المخيمات،» يَعْمل من خلاله هؤلاء الشبابُ مع أطفال فلسطين في مخيمات لبنان في مجالات متعدّدة مثل الرسم والتصوير والكتابة الإبداعية والمسرح. وكان إدوارد سعيد أحدَ الأساتذة الاستشاريين لهذا المشروع التضامنيّ الجميل.

يسمع نديم اسمَ إدوارد يتردّد في بيتنا بشكل شبه يوميّ: في حديثنا عن الكتب وعن الجامعة وعن الحرب وعن العنف وعن العدل وعن الموسيقى. وفي كلّ مرةٍ يسمع اسمَه يسأل: «من هذا الرجل؟»

عند صدور سيرة إدوارد الذاتية **خارج المكان**، بمجموعةِ الصور الجميلة له في طفولته وفي صباه، جلسنا أنا ونديم نتصفّح الكتاب وأحكي له «حدّوتة» إدوارد...

بلغني نبأُ رحيل إدوارد ليلةَ الخميس ٢٥ سبتمبر. انشغلتُ بالحدّوتة ونسيتُ أنَّه سيرحل. أَنْفجرُ بالبكاء... أَبْكيه طويلاً طويلاً. نديم لم ير دموعي من قبل. لم أبكِ أحدًا ولا شيئًا أمامه قطّ. يرمقني عن بعد بحنانٍ وإشفاق. أضمّه إلى صدري، وأسأله: «هل تعرف لماذا أبكي؟» يومئ برأسه ويُمْسك بيدي. يتوجّه إلى أرفف الكتب المرصوصة على الحائط، ويشير بإصبعه الصغير إلى غلاف **خارج المكان**. فأتوقَّف عن البكاء.

وبعد... إدوارد سعيد: «تكريم» وتكريم

المسرح الصغير، دار الأوبرا المصرية، الساعة السابعة مساءً، ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٣. نحن في الجلسة الختامية لمؤتمر القاهرة للإبداع الروائيّ في دورته الثانية التي حملتْ اسم إدوارد سعيد «تكريمًا» له. الليلة تَمْنح مصر جائزة الرواية لإحدى المبدعات أو أحد المبدعين العرب. قاعة المسرح امتلأتْ بالجالسين والواقفين من الضيوف العرب والأجانب: المبدعين، والباحثين، والصحفيين، والمحكّمين، والمكرَّسين، والمهمَّشين.

يقرأ علينا الكاتب الكبير الطيب صالح، رئيسُ لجنة تحكيم الجائزة، حيثيات اللجنة المكوّنة من أبرز النقاد في العالم العربيّ. يقفون جميعًا على المنصة أمامنا، يتوسّطهم الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة الدكتور جابر عصفور، ووزيرُ الثقافة الفنان فاروق حسني. يعدّد الطيب صالح سمات الفائز بالجائزة: سمته الأولى التقشُّف... دنيويًا، وإبداعيًا، عاش حياته خارج مؤسسات الدولة، حارسًا «لمعبد الفن» (على حدّ تعبير صالح)، مقدّسًا، ملعونًا، راصدًا حياته للكتابة، متضامنًا مع المقموعين، منتصرًا للحق، متنزّهًا عن أضواء ومكاسب الشهرة البرّاقة. يبدأ الهمس في القاعة: «صنع اللّه... صنع اللّه...» ثم يعلن الطيب صالح اسم الفائز: نعم، إنّه صنع اللّه إبراهيم! فهو المتفرّد في الحقل الثقافيّ العربيّ بموقفه الحاسم والثابت من المؤسسات الرسمية، وبموقعه الاستثنائيّ والمحسودِ عليه داخل الحقل نفسه.

يشقّ صنع اللّه طريقَه إلى المنصة وسط تصفيق حادّ. الجميع يترقّب كلمته ويتعجّب لمفارقة الموقف في آن. همسٌ من جديد في القاعة: «كيف لصنع اللّه أن يَقْبل جائزة من الدولة؟ ألم يَرْفض أكثر من جائزة من قبل؟ الازدواجية هي سمة العصر...»

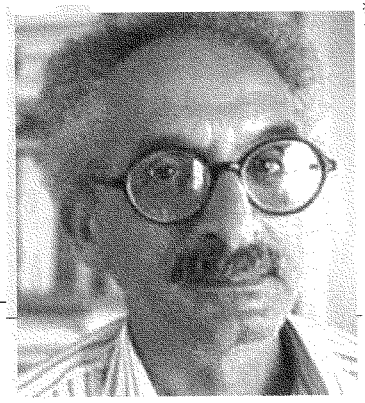

اعتذار صنع الله إبراهيم. «حلْم» إدوارد يتحقّق في دورة «تكريمه»

يبدأ صنع اللّه كلمتَه بخفة ظلّ لاذعة، متمرّدًا على سلطة اللغة الخطابية الرسمية: «لستُ قادرًا على مجاراة الدكتور جابر في قدرته على الارتجال...» معلنًا عن استخدامه «لغةً» أخرى: «سطّرتُ بسرعة كلمة قصيرة أعبِّر بها عن مشاعري.» فأجدُني أتذكّر الراوي في رواية صنع اللّه إبراهيم **اللجنة**؛ ذلك أنّ المشكلة الجذرية في نصّ الرواية هي أنّ الراوي يتحدّث بلغة وأنّ اللجنة التي يقف أمامها تتحدّث بلغة أخرى.

يتابع صنع اللّه، بتواضعه المعهود، قائمةَ أسماءِ مَنْ هم «أجْدرُ» منه بالجائزة، الراحلين منهم والباقين بيننا. ثم يوجّه تحية إلى «أستاذه» محمود أمين العالم، أحدِ أعضاء لجنة التحكيم، وزميلهِ في السجن الذي تعلّم «على يده... قيمَ الوطنية الحقة.»

ثم مرثية محمومة للوطن العربيّ الذي «كان عربيًا،» يبدأها في هدوء حزين. وبعدها يرتفع صوته، رويدًا، رويدًا، ليصبح جهورًا، حادًا، قاطعًا، غاضبًا، يدوّي كالرعد في أرجاء القاعة، فيتوحّد مع التصفيق المتواصل الباهر للحاضرين: من المحكّمين أنفسهم، إلى «المقاطعين» من المبدعين اللاحقين الذين كانوا قد أغلقوا ملفّ «القضايا الكبرى.» يقول:

«في هذه اللحظة التي نجتمع فيها هنا، تجتاح القواتُ الإسرائيليةُ ما تبقّى من الأراضي الفلسطينية... وتنفّذ بدقة ومنهجية واضحة خطةً لإبادة الشعب الفلسطينيّ وتهجيره من أرضه. ولكنّ العواصم العربية تستقبل زعماء إسرائيل بالأحضان.»

يصفّقون، فيزداد صوتُه ارتفاعًا. يحيّونه، فتزداد نبرته حدّة:

السفير الإسرائيليّ يَسْكن القاهرة «في طمأنينة،» والسفير الأميركيّ «يحتلّ حيًا بأَكْمله.» الإملاءات الأميركية، والعجز في سياستنا الخارجية. والاحتلال الأميركيّ للعراق، وتفشّي الفساد والامتهان والتعذيب.

خطاب رائع منسّق في فضحه، جريء في مواجهته. يَخْرج عن دور الروائيّ، باعتباره «ضمير الأمة» و«مؤرّخها السريّ» الذي كنّا قد سكنّا إليه، ويصبح لسان حالها الحيّ... ويضافِر السياسيَّ بالثقافيّ:

«لم يعد لدينا مسرح، أو سينما، أو بحث علميّ، أو تعليم. لدينا فقط مهرجاناتٌ ومؤتمراتٌ وصندوقُ أكاذيب.»

يصفّقون، ويومئون بالرؤوس متّفقين مع كلّ كلمة في هذا الخطاب غير المسبوق. ولكنّه يظلّ «خطابًا،» كما همس البعضُ في القاعة.

وفجأةً ينقلب الخطابُ إلى فعل، ويختتم صنع اللّه كلمته التي كان قد ذكّرنا في مطلعها بأهمية العمل «الجاد المثابر» بمنأًى عن «مداهنة المؤسسة الرسمية» وبمسؤولية الكاتب العربيّ إزاء هذا «الواقع المرعب،» موحّدًا بين الكلمة والفعل، بين الخطاب الجريء والموقف الجريء:

«أُعْلن اعتذاري عن عدم قبول [الجائزة] لأنّها صادرةٌ عن حكومة لا تَمْلك ـ في نظري ـ مصداقية منحها.»

يَنْزل من على المنصة في ثقة، يتأبّط ذراعَ زوجته ليلى عويس ويهمّان بالخروج من القاعة، وسط التصفيق والتهليل والدموع. تنقضّ عليه مجموعةٌ من الشباب تعانقه وتقبّله. لقد أَعَدتَ إلينا الأمل؛ هكذا يردّدون منشرحين. ويخرج الجميع وراءه من «حظيرة» السيد الوزير.

ها هو «حلم» إدوارد يتحقّق. هكذا يكون المثقف: منخلعًا عن السلطة بكلّ أشكالها، متسقًا في خطابه وفعله. هكذا يكون التكريم، تكريم إدوارد سعيد الذي أُلْصِق اسمُه على دورة المؤتمر ولم يذكره أحدٌ في هذه الجلسة الختامية.

القاهرة

سامية محرز

أستاذة مساعدة في قسم الدراسات العربية في الجامعة الأميركية بالقاهرة.